

مسكويه

أبو علي الخازن (*)

الأديب ، الفيلسوف ، المؤرخ ، الحكيم ، الفصيح

توفي (٤٢١ هـ) - (١٠٣٠ م)

للأستاذ أحمد سامح الخالدي



نشأ في كنف آل بويه ، وم على رأي ابن طباطبا في الفخري من الفرس وليسوا من الليليم ، وإنما سماوا بالليليم لأنهم سكنوا بلاد الليليم ، وهي في الناحية الجنوبية الغربية من بحر قزوين ، كثيرة الأشجار والغابات ، غزيرة الأمطار ، يشتمل أهلها بصيد الأسماك والتحطيب .

وقد سميت هذه العائلة بآل بويه ، نسبة إلى بويه جد العائلة ومؤسسها ، وكان صياد سمك ، وكان أحد أبنائه الثلاثة معز الدولة (أبو الحسين أحمد) يقول بعد تملكه البلاد « كنت احتطب الحطب على رأسي » .

نشأت هذه العائلة المالكة من هذا الأصل الوضع ، واستولت على الخلافة العباسية ، فمزات الخلفاء ولتهم ، واستوزرت الوزراء وصرفتهم ، وانتقلت لأحكامها أمور بلاد المعجم وأمور العراق . وملكوا مئة عام من ٣٢٢ هـ إلى ٤٢١ هـ حين انقراض ملكيتهم . وهي السنة التي توفي فيها مسكويه ، وبنهم ، وخازنهم ، ومؤرخهم بل صديقتهم الذي عاش في نعمتهم وترعرع في قصورهم (١) فكان نعم الصديق الحكيم المشير .

تعلم على الرئيس أبو علي ابن سينا (توفي ٤٢٨ هـ ١٠٣٦ م) ولم يقدر الرئيس مواهبه ، وليس هو بأول نابغة يجيب ظن الأساتذة فيه . وقد ذكره الرئيس في بعض كتبه قال « فهذه المسئلة حضرت فيها أبا علي بن مسكويه فاستمادها كرات وكان عسر الفهم ، فتركته ولم يفهمها على الوجه » . هذا معنى ما قاله

(*) أحمد بن محمد بن يعقوب اللقب مسكويه (أو ابن مسكويه) الرازي الأصل ، الأصفهاني السكن والناخعة ، كان مجوسياً فاسلم .

(١) الفخري ص ٢٤٩ - ٢٥١ .

ابن سينا لأنني كتبت الحكاية من حفظي (كذا يقول ابن القفطي في أخبار الحكماء ص - ٢١٧) .

أما أبو حيان في كتابه الامتاع فقد وصفه بقوله (وأما مسكويه فقير بين أغنياء ، وغني بين أنبياء (١)) (كذا) لأنه شاذ ، وإنما أعطيته في هذه الأيام صفو الشرح لإيساغوجي (٢) وقاطيفو رياس (٣) من تصنيف صديقتنا في الري (٤) (معجم الأدباء لياقوت ج ٥ - ص ٥) .

وواصل مسكويه بكبار أدباء زمانه ومنهم ابن العميد (٥) واتخذ هذا خزانة لكتبه كما ذكره أبو حيان في كتاب الوزيرين ، وراسل بديع الزمان الهمداني (٦) وتدرج حتى صار خزانة للملك عضد الدولة بن بويه وكان مأموناً لديه أثيراً عنده وله مناظرات ومحاضرات ...

على أن مسكويه لم يكن أديباً بارعاً فحسب بل كان مؤرخاً ممتازاً فلقد ألف كتابه الشهير « تجارب الأمم » بلغ فيه إلى بعض سنة ٣٧٢ هـ وهي السنة التي مات فيها عضد الدولة بن بويه صاحبه وهو كتاب جميل كبير يشتمل على كل ما ورد في التاريخ مما أوجبه التجربة وتفريط من فرط وحزم من استعمل الحزم (٧) . ولم تقتصر جهوده على الناحيتين الأدبية والتاريخية بل كان « فاضلاً في العلوم الحكيمية متميزاً فيها خبيراً في صناعة الطب جيداً في أصولها وفروعها وله من الكتب كتاب الأثرية وكتاب الطيبين (٨) » .

ويقول عنه ياقوت في معجم أدبائه (٩) (ويظهر أنه كان

- (١) كذا في الأصل ولعله قصد وغني بين أنبياء .
- (٢) الدخلى إلى كتاب النطق لأرسطو .
- (٣) هو أحد كتب أرسطو المنطقية الثلاث ، وهي فاطينورياس ، وباري أرميناس ، وأتولوجيا .
- (٤) هو أبو سليمان المنطقي ، كان متمزلاً من أصحاب أبو حيان التوحيدي
- (٥) الأستاذ الرئيس أبو الفضل محمد بن الحسين العميد كاتب المشرق ووزير عضد الدولة البويهى صاحب طريقة الشعر المنتور توفي ٣٦٠ هـ .
- (٦) أبو الفضل أحمد بن الحسين الكاتب القزويني والشاعر البديع صاحب المقامات المشهورة - نشأ بهمدان ونشأ في الأدب توفي (٣٩٣ هـ)
- (٧) طبعت الجزء الأول لجنة جب . كما طبع الجزء الخامس والسادس من .

(٨) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (ج ١ - ٢٤٥) .

(٩) ج ٥ - ص ٥ .

١٢ - وحسن احتمال للفنى والفقير ، والكرامة والموان
بجبهة وجهة .

١٣ - وذكر المرض وقت الصحة ، والمهم وقت السرور ،
والرضا عند الغضب ، ليقل الطغى والبغى .

١٤ - وقوة الأمل وحسن الرجاء .

١٥ - والثقة بالله عز وجل وصرف جميع البال إليه .

هذه الشخصية النابتة ، قد تركت لنا آثاراً خالدة في الأدب
والتاريخ ، والكيمياء والطب والحكمة والأخلاق والفلسفة ،
تشمعل على ناحية مجهولة لم يشر إليها الكتاب قبل الآن على
ما نعلم ، تلك هى ناحية القمص .

فقد جاء في أخبار الحكماء لابن القفطى^(١) ، أن من تصانيف
ابن مسكويه كتاب أنس الفريد وهو أحسن كتاب صنف في
الحكايات الفسار والفوائد اللطاف . ويصف لنا يا قوت في معجم
أدبائه هذا الكتاب النادر^(٢) فيقول « كتاب أنس الفريد ،
مجموع يتضمن أخباراً وأشعاراً وحكا وأمثالاً غير محبوب » .

وقد لفت نظرى هذا الكتاب ، وخصوصاً وإن ابن القفطى
يقول عنه أنه أحسن كتاب صنف في الحكايات القصار ،
والفوائد اللطاف .

ولما كان هذا النوع من الأدب العربى نادراً أخذت أقتش
عن هذا الكثر الضائع في مكتبات فلسطين ومصر ، والأستانه
وإيران الخ . واستمعت بقناصل تلك الدول وحكوماتها ولكن
جهودى المتكررة لم تنمر مع الأسف حتى الآن .

إن الذى يكتشف لنا « كتاب الأنس الفريد » لابن مسكويه
الخانز إنما يثر على كثر تمين ، ويضيف ثروة أدبية قيمة إلى
تراث السلف الصالح .

أصمحر سامح الخالدى

(١) ص ٢١٧ .

(٢) ج ٥٥ ص ٥ .

مشغولاً بطلب الكيمياء مفتوناً بكتب أبى زكريا وجابر بن حيان
فلم يكن يلتفت لغير ذلك . وقد قطن المامرى الرى خمس سنين
يدرس ويعلى ويصنف ويروى ، فما أخذ مسكويه عنه كلمة واحدة ،
ويظهر أنه ندم على ذلك وأنه أسدؤه . ومع هذا فهو ذكى حسن
الشعر ، نقي اللفظ ، ويظهر أنه كان بديلاً !

وقد ترك لنا صاحب الترجمة كتباً قيمة فى الأخلاق والتربية
والفلسفة منها « تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق » و« كتاب
تهذيب الأخلاق » فى التربية ، و« الطهارة فى تهذيب الأخلاق »
و« الفوز الأصغر » و« الفوز الأكبر » و« كتاب الفوز الأكبر »
و« كتاب ترتيب الماديات » الخ .

وله وصية أنهاها بهذه التذكرة وهو يدعو للعمل بموجها ،
وهى تشتمل على أرقى المثل العليا وأسمائها ، وتاخص لنا فلسفته
فى الحياة ومذهبه فى السلوك . وهى خمسة عشر باباً :

١ - إيثار الحق على الباطل فى الاعتقادات والصدق على
الكذب فى الأقوال والخير على الشر فى الأفعال .

٢ - كثرة الجهاد الدائم لأجل الحرب الدائم بين المره
وبين نفسه ...

٣ - والنسك بالشريعة ولزوم وظائفها ، وحفظ المواعيد
حتى ينجزها . وأول ذلك ما بينى وبين الله جل وعز .

٤ - وقلة الثقة بالناس بترك الاسترسال^(١) .

٥ - ومحبة الجميل لأنه جميل لا لغير ذلك .

٦ - والصمت فى أوقات حرركات النفس للكلام حتى
يستشار فيه العقل .

٧ - وحفظ الخال التى تحصل فى شىء حتى تصير ملكة
ولا تفسد بالاسترسال .

٨ - والأقدام على كل ما كان صواباً .

٩ - والإشفاق على الزمان الذى هو العمر ليستعمل فى

المهم دون غيره .

١٠ - وترك الخوف من الموت والفقير لعل ما ينبغي .

١١ - وترك التواني ، وترك الاكثراث لأقوال أهل

الشر والحسد اثلا يشتمل بمقابلتهم ، وترك الانفعال لهم .

(١) استرسل فى الكلام انبسط فيه واتسع ، وإليه ، انبسط إليه

واستأنس ...

اطلب كتاب

مبادئ فى القضاء الشرعى